اللغة الأب

تأملات في الكتابة باللغة الثانية *

نجلاء عثمان التوم **

"فإن كان الأمر يتعلق بشخص مجهول لم ينطق بعد تجاهي بكلمة واحدة، يبقى بوسعي الاعتقاد أنّه يعيش في عالم مغاير لعالمي، عالم لا تستحق فيه أفعالي ومشاعري أي مكان. لكن يكفي أن ينطق بكلمة أو أن تصدر عنه حركة تنم عن نفاد صبره حتى يكف عن الاستعلاء علي. ذلك إذن هو صوته، وتلك هي أفكاره. ذلك هو إذن المجال الذي كنت أعتقد أنّي لا أطاله. إن أي كائن [إنساني] لا يستعلي على الكائنات [الإنسانية] الأخرى بشكل نهائي إلاّ متى ظل عاطلاً وجاثماً على اختلافه الطبيعي".

موريس مرلوبونتى

مدخـــل

طفولة الورقة:

ترعرعت الأفكار الأولية لهذه الورقة في كنف أسئلة متعددة استثارتها مجموعة من الملاحظات حول اللغة والكتابة الإبداعية. إن كل سؤال منفرد من هذه الأسئلة هو سؤال ضخم متشعب ولا يقود الإمساك بجزئية فيه، مهما بدت ضئيلة، إلا إلى المزيد من التشعب والفرضيات وفي الغالب إلى أسئلة جديدة. غير أن هذه الورقة، ولحسن الحظ، ذات آمال ضئيلة جداً في الخلاص؛ ولا تزيد طموحاتها عن محاولة مسائل تقع في الحدود بين هذين العالمين. سوى أن ذلك أيضاً ليس ميزة بقدر ما هو عبورات شاقة بين الحواف المضللة لقصة اللغة والكتابة الإبداعية واللغة الأم واللغة المكتسبة، والتي بتأمل طفيف يمكن إعادتها إلى مربعها الأول ؛ مربع ما قبل الكتابة: مربع اللغة.

في التاريخ الطويل الشجاع لعمران البشرية، امتلأ خُرجها بما لا يُعد من الإشراقات وبما لا يُغفر من الإخفاق. سوى أن "حدث" اللغة يعتبر من ألمع الفصول في مسيرة الإنسانية، بحيث

أعطى هذا الامتياز فصيلة البشر الناطقة حجة على ما عداها من المخلوقات. إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك القدرة على اكتساب قوالب لغوية محدودة وتطوير حساسية فردية تجعله قادراً على التعبير عن نفسه في صياغات غير محدودة. كما أنه كشف عن الحدود القصوى لاختلافه عندما أظهر قدرته على تحويل اللغة نفسها إلى فضاء خلاق متجاوزاً بها وظيفيتها الصارمة إلى حقل الإمتاع الأدبي والمؤانسة الفلسفية حيث لا وجود للأدب أو الفلسفة خارج سياج اللغة ولا وجود للغة كمادة للخلاق وحقل للتفكر خارج الإنسان.

إن التأمل في موضوعة اللغة مبعث لمتعة لا تنتهي. غير أنه ثمة محفزات جعلت من التأملات المتقطعة خيط متصل من الأفكار. بدأت طفولة هذه الورقة بنظرة فضولية اعتباطية إلى تجارب مختلفة نوعياً كان من بينها العلاقة الشيقة بين الكاتب الأرجنتيني خوركي لويس بورخيس واللغة الإنجليزية والتي اكتسبها بالتزامن مع لغته الأم وصارت فيما بعد منبعاً للرؤيا ومصدراً لا يجدر إغفاله متى ما نظرنا إلى تجاربه في وعن الكتابة واللغات والترجمة.

ومثلما تبدأ بعض الأشياء من مستصغر أشياء طفقت تلك النظرة تراقب: مروراً بتجربة كاتب كردي جعل من اللغة العربية رهانه الأساسي، يقف سليم بركات إلى جانب المفكر الفلسطيني ادوارد سعيد في نصوع التجربة وتفردها داخل لغة لا مجال للاطمئنان إلى أنها اللغة الأم لأي منهما. وانتهاء بتجربة القاصة السودانية ستيلا قايتانو المقيمة في طرف نائي من الخرطوم والتي تجد نفسها ـ بمجرد دفعها لباب البيت بنية الخروج ـ مرغمة على التنقل بين لغتها الأم وبين "عربي جوبا" بنسختيه ـ فإحداهما أقرب لجوبا من الأخرى ـ إلى أن تصل غانمة إلى أحد الكبارى حيث تُعد لغة الوسط في القياس.

إن توفر كاتب على فرصة اكتساب أكثر من لغة في مراحل عمرية باكرة كما في حالة بورخيس أو متأخرة قليلاً كما لدى سعيد عنصر يحمل في طيه احتمالات فادحة الثراء بحيث لا يمكن أبداً تخطيها عند النظر إلى عملية الكتابة والتفكير وأحراش اللاوعي المعتمة. كان ذلك ـ فيما يتعلق بهذه الورقة ـ يمثل ما يشبه نقطة البداية لتساؤلات متولدة ومستمرة. إلى ماذا يقود النظر في علاقة الكاتب بلغة أخرى بالنسبة إلى الكتابة السودانية؟ نحن في الطريق: صحبة تجارب منجزة أو تجارب تكتشف احتمالاتها: الروائية ليلى أبو العلا والروائي السوداني

البريطاني جمال محجوب المقيمان في انجلترا ويكتبان في الإنجليزية. الشاعرة إشراقة مصطفى والشاعر السوداني المصري طارق الطيب في الألمانية. وصولاً إلى كهوف القلق التي تتحدر منها نصوص الكاتب طلال عفيفي في هجراته بين ولادات كثيرة ولغتين لا يستطيع الركون إلى أن ألمانيته بينهما قد تنحت كلياً لصالح لسانه العربي المبين. لقد انتهى كل ذلك إلى تسمية السؤال: هل سؤال اللغة الثانية هو سؤال حقيقي؟ هل هو سؤال الهوية مستعاداً من الأطلس الانثربولوجي؟ هل تعتبر اللغة الثانية ميزة أصيلة عند النظر إلى هذه التجارب؟ ما علاقتها بالتفكير؟ هل هناك لغة قادرة أكثر من غيرها على تحمل أنماط معينة من الأفكار؟ هل هي خبرة أم عبء؟ ما الذي يدعو الكاتب إلى اختيار اللغة الثانية عند تقصده للكتابة الإبداعية وما الذي يجعله يحجم عن الاختيار إن توفرت له الفرصة؟

المقدمـة

اللغـة الأب:

ألزمت هذه الورقة نفسها بمقاربة مسألة الكتابة الإبداعية في لغة غير اللغة الأصلية للكاتب أو الكاتبة من زاوية نظر استقرائية ترمي إلى استعراض جملة من العناصر وثيقة الصلة بالموضوع وتدبر الاحتمالات المنظورة لتعزيز أو دحض مفهوم "اللغة الأب" الذي يتعين شرحه باعتباره مصطلحا مجترحاً داخل سياق هذه الدراسة ومستنداً بالأساس على أسئلتها وفرضياتها.

"اللغة الأب" مفهوم تلازم قراءته تحت ضوء المعرفة السابقة القائلة إن اللغة الأم هي اللغة التي ينشأ عليها الفرد ويكتسبها ضمن بيئته الاجتماعية الطبيعية بحيث يتم نقل كافة الخبرات الخاصة بالمجموع - وأولها اللغة - بشكل تدرجي طبيعي للفرد داخلها، وهي تعتبر بذلك مكوناً أصيلاً في شخصية الفرد. في مقابل ذلك، فإن اللغة الأب ببساطة هي اللغة الثانية المكتسبة بشكل لاحق أو متزامن مع اكتساب اللغة الأصلية وبذلك فهي تمثل رافداً ثانوياً فارقاً، مع ربط هذا المفهوم كلياً بتجربة الكتابة الإبداعية إذ لا تنوي الورقة التعرض إلى هذا المفهوم إلا تحت هذا الشرط تفادياً للتشعبات التي قد تنحى لوضع اللغة الثانية ضمن أغراض تخدم خطابات أخرى تربوية أو تعليمية أو إعلامية.. الخ. كما أن زاوية النظر إلى اللغة الأب منطلقة كلياً من سؤال

اختيار أو ميل كاتب أو كاتبة إلى الكتابة فيها دون اللغة الأصلية باعتبار أن الكتابة الإبداعية ذاتها موقف من العالم وخطاب له سلطته و تمظهراته.

يمثل النظر في الأسباب المحتملة التي تدعو إلى مغامرة الكتابة في اللغة الثانية واحدة من البؤر الأساسية في هذه الورقة. وحيث تجدر موضعة بعض الفرضيات في هذا الخصوص، يكون علينا التنبه إلى أن محاولة الخلوص إلى أحكام تعميمية تعتبر إخلالاً بجملة المعطيات المتغيرة بتغير العنصر الأساسي والذي هو التجربة المفردة لكل كاتب على حدة. إن مفردة الأب في صيغة المفهوم آنف الذكر ليست اقتراحاً بريئاً كلياً وهي بالحقيقة تحمل فرضيتها داخلها إذا اتفقنا أن هناك انطواء على معان متعددة داخل كيان الأبوة في الأنظمة الاجتماعية السائدة. تشتمل الأبوة على معاني السلطة والشرعية والاعتراف الاجتماعي في هذه المنظومات. وإذا جازفنا بوصف لغة الكتابة الإبداعية بأنها لغة "أب"، فذلك يقترح بشكلٍ ما ميل إما إلى اكتساب هذه المعاني أو بالمقابل تمثلها وتبنيها. لكن اللغة الأب ـ بالنسبة للغة الأم ـ هي لحظة حرية أيضاً، ففيها يعيد الكاتب تعريض نفسه إلى العالم وإلى المفاهيم مرة أخرى متحرراً من حظية العادة حين يبدأ بملاحظة التفاصيل بعين الغريب. أن العبور إلى الكتابة عبر هذه الغربة قد يكون امتيازاً بقدر ما هو تعويل على الخسارة. يخسر الكاتب في اللغة الثانية أرضه لكنه يتقدم خطوة إلى الداخل؛ إلى مخاطبة الآخر ومحاورته وفهمه وتشريح تقاطعاته الأساسية مع كل آخر محتمل. ثمة دعاوى تلفيقية تحاول إضفاء أشكال من النبل والوجاهة لبعض اللغات تحت ستار أنها ذات قابلية الكبر على تحمل أنماط معينة من التفكير وخصوصاً الفكر التجريدي والفلسفي. إن هذه الفرضية ليست إلا تمريراً لمنظومة كاملة من الأفكار الاستعلائية، ولا شيء يرد تبجحها أكثر من أن الفلسفة موجودة في كل مكان مر به الإنسان، وربما يكفي الغنى الظاهر للفلسفات الشرقية للفت النظر إلى فقر هذه الدعاوى. إن اللغة الثانية ليست استعلاء على اللغة الأصلية ما لم يتقصد الكاتب أن تكون كذلك، لكنها عثور على جوهر وهوية من الهويات الكثيرة التي يمكن أن يحوزها الكاتب. إن هذه الفرضيات متأرجحة بدرجة كبيرة لكنها ليست كاملة الاستحالة وإذا كان من العسير إعادة تجربة مغامرة كبيرة من نوع الكتابة الإبداعية عبر

لغة أخرى إلى مستوى تأويلي واحد، فإن جل ما تبتغيه هذه الورقة هو التنقيب عن الأسئلة التي قد تحمل الإجابة عليها تفسيرات مرضية بعيدة عن التسطيح والتعميم المخل.

هذه الورقة مقسمة إلى أربعة أقسام يحاول كل قسم منها معالجة جزئية ذات صلة بالموضوع.

القسم الأول مكرس للمكون الجوهري الذي تدور حوله الورقة، وينبع من بينه سؤال "اللغة الأب"، والمقصود هنا موضوعة اللغة نفسها. ارتأت الورقة أن المنظور التاريخي لنشأة اللغة كنشاط بشري واستمراريتها وتشعبها لهو منطقة غائرة جداً، كما أنها لا تقع في صميم الأعباء التي ارتضتها الورقة. غير أن هذا الجزء سيقدم عرضاً سريعاً لنشأة وتطور علوم اللغة واللسانيات باعتبار أن بعض التأويلات ونقاط الانطلاق في هذه الورقة استفادت من الكشوفات الهائلة التي حققتها العلوم اللسانية بالتركيز أكثر على العصر الحديث الذي شهد تقدماً ملحوظاً في الدراسات اللغوية بتفرعاتها الكثيرة والذي لعبت فيه المدارس الأوربية دوراً أساسياً في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين الذي شهد أيضاً تيارات فكرية أصيلة.

يتعرض القسم الثاني إلى مسألة اللغة والتفكير واللاوعي مستنداً على أطروحات التحليل النفسي في قراءة لاكان لفرويد. أما المحور الثالث فيتطرق إلى علاقة اللغة والكتابة باعتبار أن الأولى تمثل السلطة بينما تعتني الكتابة بالحياة والحرية.

في القسم الرابع نتلمس تجربة القاصة ستيلا قايتانو في الكتابة عبر لغة ثانية استناداً على أفكارها الخاصة حول تجربتها كما صرحت بها في حوار مباشر حول المسألة.

في الختام، نحاول استعراض طيف المعطيات التي تدرجت في الدخول إلى فضاء الورقة والقياس عليها مستصحبين مفهوم اللغة الأب والنظر إلى كل ذلك تحت ضوء متحال من القطعيات ومتشكك حتى في فرضيته الأولى، لتكون أمامنا خيارات بعدد التجارب الموجودة وتلك التي قيد التكون. خيارات تعضد المفهوم الأساسي مرةً، وتنسفه مرةً، وتقترح بدائله إن تيسر وصولاً إلى أسئلة جديدة متعمقة ولحوحة سوى أنها لن تكون أبداً كافيةً لإشباع متعة البحث والتقصي في كل ما له صلة باللغة من حيث هي طاقة متحركة لا غنى للإنسان عنها ولا غنى عنه لها فهي اختراعه الأثير وسجنه الضروري وعطيته الفاتنة للكون.

القسم الأول

الدراسات اللغوية: نظرة تاريخية

مجاهدات اللغويين

بين المغامرات الفكرية الصميمة التي تنكبها الفكر الإنساني قلما نجد واحدة في تعقيد وثراء مغامرة التفكير في ماهية اللغة. لقد انشغل الفكر الإنساني القديم والحديث بالخوض في تعريفات وتفسيرات لهذه المنظومة الماثلة باستمرار خارج علومها بأكثر مما هي ماثلة داخلها. اللغة هي القاسم المشترك الأكبر بين جميع فروع المعرفة، لأنها، وفي أول تقدير، النظام الوحيد الذي يمكن عبره وبه تصنيف هذه المعرفة وضبطها وتطويرها.

لم تكن مصادفةً عندما صدر الشيخ الفيروزبادي الشيرازي القاموسَ المحيط بهذه العبارة "الحمد لله منطق البلغاء باللُغى في البوادي ومودع اللسان ألسنَ اللُسن الهوادي". ففي أول سطر من كتاب مخصص كلياً لتصنيف الألفاظ وشرحها وتفصيل جذورها ونسبها، لا أجدر من شكر الخالق على نعمة اللسان. اللغة التي هي موضوع القاموس وسببه ومحتواه، شرحها الفيروزبادي كما يلي: "اللغة" أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. الجمع لغات ولغون. ولغا لغواً: تكلم وخاب وثريدته رواها بالدسم. وألغاه: خيبه. واللغو واللغا كالفتى السقط ومالا يعتد به من كلام وغيره (1). لقد وافق الفيروزبادي في تعريفه للغة أبي الفتح عثمان بن جني في كتابه "الخصائص" الذي كان أول من عرف اللغة من النحاة العرب ووصفها بأنها أصوات يعبر بها قوم عن أغراضهم. ولعل هذه الوجهة في التعامل مع اللغة على أنها أداة تواصل أسها الشفاهة هو ما جعل نظرة اللغوي فرديناند دي سوسير إلى اللغة كنظام دلالي أشبه بثورة حقيقية في علوم اللسانيات؛ لكن قبل ذلك لنتتبع هذه المسيرة باختصار.

من الهند إلى اليونان إلى بلاد العم سيبويه

كان الهنود أسبق من غيرهم في وضع لبنات علوم اللغة. وتضمنت دراساتهم للغتهم السنسكريتية حيز الأصوات وعلم النحو الذي عكف عليه النحاة الهنود ليؤسسوا فيه ما يقارب

الإثنتي عشرة مدرسة نحوية مختلفة. يأتي على رأس هؤلاء النحاة العالم "بانيتي" الذي وضع كتاب "الأقسام الثمانية"، وهو أقدم الأسفار النحوية في فترة بين 700 و 600 ق م، والذي تم اكتشافه بواسطة المستشرق الإنجليزي وليم جونز بنهاية القرن الثامن عشر (2). ويعود الفضل في تحديد أقسام الكلام إلى النحو الهندي كما كان هو البادئ بتحليلها إلى عواملها الأولية مميزاً بين الجذر والزيادة كما عرف النحو الهندي الأعداد الثلاثة: المفرد والمثنى والجمع وقسم الفعل إلى أقسام بحسب الزمن: ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل، ولم يغدر النحاة الهنود متردم اللغة قبل أن يضعوا أول القواميس المعجمية أيضا.(3)

في اليونان، تركزت البحوث حول طبيعة اللغة وغلبت الفلسفة على الجانب التطبيقي. لقد رأى أفلاطون أن اللغة ظاهرة توقيفية إذ هي إلهام رباني حيث أوحى الله بها إلى الإنسان وأوقفه على أسماء الأشياء. فيما قال أرسطو بأنها ظاهرة اجتماعية وضعية، أي أنها استحدثت بالتواضع والاتفاق وليس بالوحي. من جهة أخرى أولى أفلاطون عنايته لأصول الكلمات وقسم الجملة إلى اسمية وفعلية، وقسم الكلام إلى اسم وفعل وزاد أرسطو عليها قسماً ثالثاً هو: الرابطة.

وفيما تعد الأبحاث اللغوية للمصريين القدماء فرعاً عن الإغريق إذ كانت دراساتهم منصبة على الآثار الأدبية القديمة والتي تركزت في الإسكندرية، فإن تلك الدراسات تضمنت أيضاً الدراسات الفيلولوجية لتصحيح النصوص المكتوبة والتعليق عليها مثل أشعار هوميروس وأيضاً الاعتناء بالمعاجم. انسحبت تلك التبعية أيضاً على السريان الذين ترجموا النحو اليوناني إلى السريانية. كما لم تزدهر الدراسات اللغوية العبرية قبل الإسلام، وجاءت أكثر أبحاثهم بعد اختلاطهم بالمسلمين وخوفهم من اندثار لغتهم لانصراف الناس عنها إلى العربية. من حيث وفرة المؤلفات اللغوية يأتي الصينيون في المرتبة الثانية بعد العرب والمسلمين. لقد ظهر أول معجم حقيقي في نهاية القرن الأول الميلادي واسمه: شو فان show wan لمؤلفه هوشن Hushin. كما كان للصينيين دراسات صوتية تظهر أنهم مدينون فيها للهنود الذي نقلوا علومهم إلى الصين على يد الرهبان البوذيين.

إن شغف العرب بالمناظرات والمفاضلات الأدبية كان هو التربة التي عزز من خصوبتها الدافع الديني للحفاظ على اللغة، لتضع الأبحاث اللغوية العرب على رأس القائمة من حيث وفرة المؤلفات. انطلاقا من أبي الأسود الدؤلي، مروراً بمدرستي البصرة والكوفة، ثم المدرسة البغدادية التي تؤازر السماع، وصولاً إلى مدرسة الأندلسيين والمصريين، كانت قواعد النحو والصرف قد أوجدت لها مستقراً. أما إعجاز القرآن، فقد شكل مادةً صارت فيما بعد مفتتح لعلم البلاغة العربية التي درست أول أمرها في "الرائع من النصوص" على يدي ابن المعتز وأبي هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني.(4)

في هذه المسيرة المتعرجة لعلوم اللغة، والتي يصعب هنا الإلمام بها، ترسخت عبر مئات السنين التعريفات والمناهج والشروحات التي تشكلت منها عشرات المدارس اللغوية في المعمورة. بالنظر إلى ما يجمع هذا التراث من قواسم، سنجد التالي: النظر إلى اللغة على أنها أداة صوتية. ثم التركيز على دراسة اللغة المكتوبة والإهمال الملحوظ للغة التخاطب اليومي. التركيز على علوم النحو والصرف على حساب الصوتيات. بمجرد ظهور مناهج جديدة في التعامل مع اللغة ودراستها سيكون جل ما تم التوصل إليه من قواعد وخلاصات واقع تحت مظلة القواعد التقليدية. التي بالقياس إليها يعتبر القرن التاسع عشر لحظة انتقالية نوعية في تاريخ اللغويات.

اللغة للكل وليست جوهراً: السفينة البنيوية في الأفق

في عام 1916 كان قد انقضى على رحيل العالم السويسري فرديناند دي سوسير (1857-1913) ثلاثة أعوام كاملة، لكن حينها كان تأثيره قد بدأ للتو في تاريخ علوم اللسانيات. فقد قام طلابه بجمع محاضراته في كتيب صغير الحجم شديد الأصالة بعنوان "دراسة في اللغويات العامة"، ودفعوا به للنشر. إن التثوير الذي أحدثته البنيوية قائم بالأساس على مجموعة من الاختراقات التي قام بها دي سوسير. لقد كشف دي سوسير عن طبيعة الوحدة الأساسية في أي لغة وهي الرمز اللغوي sign أو الدليل، والذي شرحه بارت على أنه "وحدة بين دال ومدلول، أو على أنه أيضاً وحدة صورة سمعية ومفهوم" (5). على ذلك، فإن الدال signifier هو

المكون الصوتي الذي يقابله المكون الذهني conceptual أو المدلول signified، ليشكلا معاً الوحدة التي أسماها دي سوسير الدليل sign.

أما المنجز الثاني في سيرة سوسير فهو "تمييزه بين اللغة langue والكلام parole. فاللغة هي مجموعة القواعد التي ينبغي على متكلمي تلك اللغة أن يلتزموا بها إذا أرادوا الاتصال فيما بينهم. أما الكلام، فهو الاستخدام اليومي لذاك النظام من قبل المتكلمين الأفراد". وبذلك يكون دي سوسير قد خرج كلياً من الدائرة التي قصرت اللغة على مجرد أداة صوتية تواصلية، كما انه عمد إلى الدفع بالمنهج الوصفي الذي يدرس اللغة كمعطى معين في مكان وزمان معينين. بقي أن أشير إلى واحدة من الفرضيات الأساسية في نظريه اللغة عند سوسير وهي الفرضية القائلة بأن "الرمز- الدليل - شيء (اعتباطي) وهو كذلك من ناحيتين: فالدال شيء اعتباطي لأنه ليست هنالك من علاقة طبيعية بينه وبين ما يدل عليه، بل هنالك علاقة يقبلها الناس بحكم التقاليد أو العرف. إذ ليس هناك من خاصية تشترك بها كل الأشجار مثلاً، بحيث يقتضي المنطق أو الضرورة أن ندعوها (أشجاراً) لكن هذا ما ندعوها به لأننا نتفق على ذلك ".

لكن اللغة تتصف بالاعتباطية على مستوى المدلول أيضاً ـ الكلام ما زال لسوسير ـ لأن كل لغة قومية تقسم بطرق مختلفة كل ما يمكن أن يعبر عنه بكلمات كما يتضح لكل من يمارس الترجمة من لغة إلى أخرى. فهذه اللغة تضم مفاهيم لا تضمها تلك. والمثال الذي يحب اللغويون أن يعطوه للتمثيل على هذه الاعتباطية هو مثال اصطلاحات الألوان وهي اصطلاحات تختلف بشدة من لغة إلى أخرى حتى ولو شكلت الألوان ذاتها سلسلة متصلة وكانت ظاهرة عامة لأنها تتحدد بشكل طبيعي بواسطة ذبذبات موجاتها".

النتيجة البالغة الأهمية التي يستخلصها سوسير من هذه الاعتباطية المزدوجة هي أن اللغة ليست نظاماً من الأمور الجوهرية الثابتة، بل من الأشكال غير المستقرة. إنها نظام من العلاقات بين الوحدات التي تشكلها وهذه الوحدات ذاتها تتشكل هي الأخرى من الاختلافات التي تميزها عن سواها من الوحدات التي لها بها علاقة. وهذه الوحدات لا يمكن أن يقال أن لها وجوداً بذاتها، بل تعتمد في هويتها على أندادها. فالمحل الذي تحتله وحدة ما ـ سواء أكانت صوتية أو معنوية ـ في النظام اللغوي، هو الذي يحدد قيمتها. وهذه القيم تتغير لأنه ليس هناك ما يمسك

بها ويثبتها. والنظام اعتباطي بالنسبة للطبيعة وما هو اعتباطي قد يتغير. لقد كانت الخلاصة الشهيرة التي وضعها سوسير لهذا الاكتشاف الجوهري هو: "أن اللغة للكل وليست جوهراً". فالبنيوية تتمسك بهذه الفرضية الجوهرية وهي أنها تدرس العلاقات القائمة بين عناصر في نظام يشترط كل منها وجود الآخر وليس بين جواهر كل منها مستقل بذاته. (6) بالنسبة إلى غايات هذه الورقة، تعتبر هذه الجزئية على درجة عالية من الأهمية لأنها تستدعي إلى مشهد قراءة الأحداث أو الظواهر تقعيداً حيوياً مفاده أن التغيير في أية منظومة لا ينتج فقط عن تغير العوامل أو العناصر المكونة لها بقدر ما يكون نتيجة لتغير علاقات هذه العناصر ببعضها البعض. هذا هو الفتح البنيوي الأساسي الذي مهد لتجارب غنية فيما يسمى بما بعد البنيوية تحاول الورقة الاستفادة من بعضها خصوصاً قراءة لاكان للتحليل النفسي في علاقة اللغة باللاوعي.

إن حركية العناصر داخل اللغة قد يساعدنا على تخيل الإجابة على سؤال مستحيل يقول: لماذا لا توجد لغة مكونة من كلمة واحدة؟ فطالما أن اللغة قائمة على الاختلاف والتنوعيات بين وحداتها الداخلية فان ذلك يدعم أن اللغة قائمة على اختلاف المعطيات خارجها أيضاً. فاستحالة أن تكون هناك لغة مكونة من دليل واحد أي دال ومدلول منفردان يوحي بأن اللغة اختراع وجد ليلبي أشواق تتجاوز الواحدية؛ أشواق التنوع والاختلاف.

"جاك" آند "جيل" بلوم فيلد: النظرية اللغوية السلوكية نظرية الحدث الكلامي

نفترض أن جاك وجيل يتنزهان. تشعر جيل بالجوع وترى تفاحة على الشجرة، فتقوم بصوت يصدر عن حنجرتها ولسانها وشفتيها. يقفز جاك ويتسلق الشجرة ويأخذ تفاحة إلى جيل ويضعها في يدها. تأكل جيل التفاحة.

أحداث القصة متتالية:

* حدث عملي سابق لعملية الكلام.

* حدث الكلام.

* أحداث عملية تلي عملية الكلام.

حسب النظرية السلوكية، فإن دور اللغوي لا يتعدى النظر والدراسة في حدث الكلام نفسه متحللاً من النظر فيما يسبق الكلام وما يليه من أحداث باعتبارها معطيات تنتمي إلى مجالات أخرى نفسية أو فيزيائية وليست اللغة معنية بها. وعمل بولمفيلد (1878-1949) على ترسيخ اتجاه أن المكونات المباشرة للجملة هي المنطلق الجوهري للنحو بكامله. وجهد في تحليل هذه المكونات إلى عوامل أولية ما أمكن. سنجد أن بلوم فيلد أيضاً سار في اتجاه إهمال المعنى وما إذا كان التواصل ـ والذي هو غاية اللغة الفعلية ـ يتم بحصول نقل المعنى بشكل صحيح أو لا. كما أنه أهمل علاقة اللغة بالعقل وبالمجتمع معتبراً أن اللغة مادة علمية موضوعية ليست ذات صلة لا بالفكر ولا بالمعنى، وكان هذا الضعف هو القاعدة التي انطلق نعوم تشومسكي منها لخلخلة ثوابت السلوكية. إن تفسيرات السلوكيين لا تعطينا أية إجابة حول ما تقوله اللغة والأهم من ذلك ما لا تقله اللغة: الفراغ المعصوم الذي يتقافز حوله الإنسان محاولاً شرحه بكل ما لديه من فنون وآداب وفكر وتقنيات وجيوش من التدوينات والشفاهة والخطابات المتناقضة الموتورة.

تشومسكي: القواعد الكلية

ولد نعوم تشومسكي في فيلادلفيا عام 1928 وهو مؤسس نظرية القواعد التوليدية التحولية Generative Transformational Grammar والتي تعد من أكثر النظريات اللغوية إثارة للاهتمام في الدوائر الأكاديمية. لقد مثلت هذه النظرية ثورة كبيرة على المدرسة السلوكية باهتمامها بالمعنى كعنصر حيوي في استنباط القواعد اللغوية.

تقوم مقترحات تشومسكي والعلماء الذين تبنوا نظريته على أن الإنسان ـ دوناً عن جميع المخلوقات ـ يولد وداخله استعداد فطري لاكتساب أية لغة ـ أو لغات ـ يتعامل معها في مجتمعه بشكل طبيعي. هذه القدرة التي تولد مع الطفل تتكون من القواعد الكلية (لجميع اللغات) Universal Grammar، وادعوا أن الطفل يولد وفي عقله آلية خاصة أطلقوا عليها "جهاز اكتساب اللغة" Language Acquisition Device أو LAD اختصاراً.(7) يقوم الطفل باستخلاص القواعد اللغوية من اللغط الذي يدور حوله والذي يسمعه في أي مكان، ليبدأ بذلك

بصياغة القواعد اللغوية الخاصة به في كل مرحلة من مراحل نموه، ابتداء من الجملة ذات الكلمة الواحدة، ثم جملة الكلمتين وهكذا. إن التحدي الفارق في هذه النظرية يقول أن الطفل حتى حين يقوم بصياغة الجمل على نحو مغلوط فإن ذلك لا يتم عشوائياً. وما يحدث هو أنه يكون قد بدأ فعلاً في تكوين قواعد خاصة به في كل مرحلة من مراحل نموه. هذه القواعد تخضع باستمرار إلى التعديل والتقويم إلى أن تصل إلى القواعد القياسية التي يستخدمها الكبار.

إن هدف النظرية التوليدية هو التوصل بشكل علمي إلى جميع القواعد التي تكون الأساس القادر على توليد جميع الجمل الصحيحة في اللغة والتي لا يمكن في حال تمت صياغتها بشكل سليم أن تتولد عنها أية أي جملة غير صحيحة. على ذلك قسموا الجملة إلى قسمين هما البنية العميقة Deep Structure، والتي تتحول وفق قواعد التحويلية إلى عدة أشكال لغوية ظاهرية هي البنية السطحية للجملة Surface structure. تحقق البنية العميقة القلب الذي يضم المعنى وتعطي البنية السطحية الجسد باتخاذها شكلاً معيناً صرفياً ونحوياً وصوتياً، والتي ليست بأكثر من المظهر الأخير من مظاهر الجملة. الجدير بالذكر أن النظرية التحويلية لها جذور في البلاغة العربية وبالأخص عبد القاهر الجرجاني في احتكامه للمعنى في تراكيب لغوية متعددة.(8)

لنغادر تشومسكي بسلام، علينا المرور أيضاً على مبدأي الكفاية competence والأداء performance اللغويين. عرف تشومسكي الكفاية اللغوية على أنها المعرفة الضمنية للمتكلم بقواعد لغته بحيث تتيح له القدرة على إنتاج عدد هائل من الجمل من عدد محدود من الفونيمات الصوتية phoneme، والقدرة على الحكم بصحة الجملة من ناحية نحوية تركيبية ثم القدرة على الربط بين الأصوات المنتجة وجمعها في مورفيمات morpheme تنتظم الجمل، إلى جانب ربطها بمعنى لغوي محدد، وهذا كله يتم في عمليات ذهنية داخلية. أما الأداء اللغوي، فهو طريقة استخدام الكفاية اللغوية. الأداء هو الكلام والجمل المنتجة، وهو الوجه الظاهر المنطوق للمعرفة الضمنية الكامنة للغة.

إن لحظة تشومسكي هي لحظة مفصلية في تاريخ اللغويات. فمع أصالة فرضياته، أبدى تشومسكي استعداداً كبيراً لبناء الجسور مع معرفيات محايثة لعلوم اللغة حتى أنه أعتبر أن

اللغويات يمكن أن تكون فرعاً من التحليل النفسي على أساس أن الدراسة العلمية للغة وخصوصاً النظرية التوليدية يساعدنا على فهم أفضل لكيفية حدوث العلميات الذهنية. اشترك تشومسكي عام 1958 مع جورج ميللر الطبيب النفسي في تحرير ورقة عن "اللغات الحدية" Finite-State Languages، تعرض فيها إلى تطبيقات القواعد التحويلية في النظر إلى الميكانيزمات السكيولوجية المصاحبة للأداء اللغوي.

سيكتفي هذا المحور بما جاء أعلاه مع التذكير أن مجاهدات اللغويين المستمرة لا يمكن تلخيصها في هكذا عجالة. شهدت علوم اللغة لحظات إشراق كبيرة بفضل علماء اللغة والفلاسفة، ولديها إرث نظري وتطبيقي لم يكن ليوجد لولا قلق البحث المستمر. لا يمكن إغفال دور مدرسة براغ اللغوية ولا حفريات سابير Sabir في علاقة التفكير باللغة كما تحضر الاتجاهات الأكثر حداثة فيما يعرف بما بعد البنيوية، والتي كانت استجابةً للمشهد الفكري الأوربي في تململاته ضد النبل والامتياز والرصانة كصفات قاصرة على الحضارة الغربية الحديثة، ما جعل اللغويين أكثر انفتاحا على الحضارات الأخرى وأكثر اهتماما بدراسة لغات المجموعات الصغيرة وإعادة اكتشاف العناصر المشتركة في الفكر والإبداع الإنسانيين. أجد نفسي في حاجة للتذكير إن وجهة الورقة تتعدى المسح التاريخي لعلوم اللغة إلى مساءلة قضية معينة؛ إنما حصول التركيز على بعض المدارس والفرضيات استلزمه ظهور ومساءلة بعضها في مكان متقدم من الورقة.

القسم الثاني

اللغة والتفكير واللاوعي

"كل خطوة تجاه ما سنفعله هوة على مستوى ما نريده منها حقاً"
أحمد النشادر

تدخل اللغة في صميم النشاط الإنساني بحيث يتعذر تصور غيابها، وفي محاولاتنا لتغييب عنصر اللغة لنتصور أي وجود للإنسان خارجها، فإننا نلجأ إلى اللغة لتصور ذلك. إن كلمة

السر في ذلك هي العلاقة العضوية بين التفكير واللغة. وبالعودة إلى السؤال المقلق حول أسبقية التفكير على اللغة يكون علينا الإقرار أن التفكير يحدث قبل اللغة الرمزية المعروفة، المكونة من أصوات تدل على معاني أو موجودات أو صور ـ قاموس دلالي ـ متواضع عليه بما في ذلك الرموز الرياضية. إنما بذات القدر، علينا التأكد مما إذا لم تكن الصورة الذهنية ـ وحدة التفكير ـ نفسها تعمل وفق المنطق اللغوي من حيث كونها دال ـ في لغة غير صوتية ـ على جوهر أولي أكثر منها، أو بالمقابل كونها مدلول لشيء خارجها أو خارج ذلك الجوهر الأولي. هنا، يجب ألا ننسى أن المدلول ليس هو الشيء بل هو صورة الشيء وبذلك قد نحصل دائماً على علاقات متسلسلة تراجعية تضع في اعتبارها دائماً جوهراً ابتدائياً مفقوداً.

الآن، هل يصح لنا القول أنه لا يوجد تفكير خارج النظام الدلائلي، أي خارج اللغة؟ سنعود الآن إلى رولان بارت في "مباديء في علم الأدلة"، حيث نجد التالي: "إن تخيل نظام من الصور أو الأشياء التي تستطيع مدلولاتها أن تتواجد خارج اللغة أمر يزداد صعوبة أكثر فأكثر: إن إدراك المغزى الذي ترمي إليه ماهية ما، معناه اللجوء حتماً إلى التقطيع الذي يقوم به اللسان: لا يوجد المعنى إلا مسمى وليس عالم المدلولات بشي آخر غير عالم اللغة". (9)

سيكون علينا المغامرة والخروج من جنة الثبات إذا سلمنا أن اللغة هي الثابت الوحيد في معادلة التفكير والرغبة أيضا. إن فتوحات دي سوسير في اللغويات كانت تتم – مصادفة – بالتزامن مع فتوحات فرويد في لحظة التحليل النفسي. وحيث كانت البنيوية التي دُحضت غالبية فرضياتها لاحقاً تتمثل استنتاجاتها الأولية بان اللغة هي نظام قائم على الاعتباطية والاختلاف وفق منظور الدلالة فان فرويد كان جدُ منشغلاً بإعداد الفرد إلى الدخول في مواجهة قاسية مع انقساماته الداخلية ونظام الفوضى في مملكة اللاوعي.

"بنية اللاوعي شبيهة ببنية اللغة" هذه واحدة من المقولات الشهيرة التي حاول لاكان من خلالها قراءة فرويد من جديد. " لقد مثل الرمز sing عند سوسير تصادماً مفاجئاً أو اتحاداً بين عالمين منفصلين كان كل منهما على حده هلامياً غير متميز: الفكر من ناحية والصوت البشري من الناحية الثانية. ولكن ما أن حدث الربط بين جزء من عالم الفكر (المدلول) وجزء من عالم الأصوات (الدال) حتى غدت الصلة بينهما من الالتحام ما جعلها صلة اعتماد متبادل كامل.

فعلى حسب سوسير "إن اللغة شبيهة بقطعة من الورق: الفكر يقع على وجهها والصوت على ظهرها. ولا يمكنك قص الوجه دون أن تقص الظهر في الوقت ذاته.كذلك فانك في اللغة لن تتمكن من فصل الصوت عن الفكر ولا الفكر عن الصوت... لن تستطيع ذلك إلا بواسطة التجريد الذي سيفضي إلى خلق علم خالص للنفس وعلم خالص للأصوات".

ويقرأ لاكان ثنائية الدال signifier والمدلول signified التي يوردها سوسير في كتاباته على الشاكلة الرياضية التالية:

S/s

أي الدال على المدلول. يكشف لاكان عن مشكلة في ترسيم هذه الصيغة على ذلك النحو وهي مشكلة الوضع الدقيق للمدلول ودوره. إن الخط الفاصل بين الرمزين هو نفسه أكثر من رمز: انه التمثيل التصويري للانفصال الحتمي الذي لا محيد عنه بينهما. كذلك، فان وضع المدلول تحت الخط يدل على أكثر من الدلالة الرياضية المعتادة. فالمدلول "ينسل" عند لاكان تحت الدال وينجح في مقاومة محاولاتنا لتحديد مكانه ورسم حدوده. أي أن هيمنة الدال (حرف كبير لاتيني في الصيغة العليا) على المدلول (حرف صغير لاتيني في الصيغة الدنيا) تظهر بادية للعيان. إن ما يسعى لاكان إلى إثباته هو أن البحث عن المدلول بشكله "الخالص"، أي البحث عن بنى الفكر الأصلية غير المرتبطة بكلمات هو من قبيل العبث. فاللغة دور تشكيلي في التفكير الإنساني. أما "علم النفس" الخالص، الذي هو على شاكلة ما أشار إليه سوسير، فلا وجود له. والموضوع الصحيح الذي يجب العناية به لدى كل من المحال النفسي وعالم اللغة هو سلسلة الدلالة نفسها: أي العلامات الملاحظة داخل السلسلة فهي أفضل دليل على البنية النفسية وعلى بنية الذات الإنسانية. " 10

من حقنا أن نتساءل الآن إن كان الأمر يمثل أهمية كبيرة بالنسبة للغة، أعني سواء كان للاوعي بنية شبيهة باللغة أو لا. ما يستدعي التأمل هنا، هو الوجود الفاعل لطاقة تفصح عن نفسها في وتتمظهر في مستويات مختلفة باستثناء جوهرها الحقيقي. إن اللغة تنصع وتتحقق في المناطق القصوى من الفكر ومن الشعور مثلما يتجلى اللاوعي في الأحلام وفي الجنون. إن كليهما غربة داخل غربة الإنسان فالفكر والشعر والأحلام والجنون كلها مناطق مدانة من قبل النظام بتهمة الترف مرة والخروج عن حظيرة الجماعة مرة. أن اللغة عنصر من العناصر المحددة

للهوية ولكنها قبل ذلك الخطوة الأولى في طريق الخضوع. لننظر في استطراد لاكان "إن الذات الإنسانية باكتسابها ملكة الكلام تدمج نفسها في نظام رمزي سابق وبذا فإنها تخضع رغبتها (اللبيدو) إلى الضغوط التي يفرضها ذلك النظام. فعندما تكتسب هذه الذات اللغة فإنها تقبل بإخضاع طاقتها الغريزية الحرة للتنظيم. وإنه لمن المزايا التي يتمتع بها الإنسان مستخدم اللغة انه لا يعلم وهو يصنع الأشياء بالكلمات المدى الذي صنعته به الكلمات ولا تزال تصنعه."

المرآة,..المرآة:

إن اللغة تفعل بنا. والأكثر إمتاعاً هو جهلنا العظيم بذلك.هذه الزاوية ترينا الفقدانات الظاهرة والخفية التي نتعرض لها جراء اللغة. إننا - كأفراد - نبدأ بالانخراط فعلياً في المجموع في اللحظة التي نعثر فيها على خريطة كنز اللغة. وفي الحقيقة حين نصل إلى النقطة الأخيرة في الخريطة حيث يتعين علينا أن نركع فقط لنحظى بالكنز، نكون قد أضعنا ذات لم تكن لدينا فرصة أبداً للتعرف عليها كاملة. هذه الفقدانات لن تنتهي لأنها موجودة أيضاً في جوهر الوجود الذي، ليتحقق، يلزمه آخر يتحقق فيه. وفي جوهر الفكر الذي يحتاج بشدة إلى جوهر آخر يحيل إليه. وفي جوهر اللغة التي تحتاج بشدة إلى الاختلاف لتتحقق فاعلية الدال والمدلول وفي محاولات الإنسان ليقول ويشرح نفسه باستمرار عبر قاموس الدلالة الفاشل حتى اللحظة. إن الشعور بالامتلاء لا يدوم لأكثر من لحظة واللذة الفكرية لا تجد ما يشبعها إذ أنه ثمة ما لم يقال أبدا وحتى ما قيل ليس إلا عبور الجسر بين الصور الذهنية والشعورية نحو الكلمات والتي لا يبدو أنها تفي بالغرض كاملاً، لأنها ليست من مادة تلك الصور وهي جوهر مختلف لا ينظر إلى نفسه على أنه تابع. ما الذي يضيع في مسافة الجسر؟ وما الذي يحدث حين يقصر الجسر أو يطول بأكثر مما ينبغي؟ هل الأحلام هي الرسائل التي فقدناها في العبور؟ هل الموسيقى والألوان احتجاجنا على المعنى؟ إذا كان الوجود الإنساني هو لحظة الوجود القصوى فما هي المرآة التي ستكملنا؟ المرآة التي سنرى فيها وجودنا المكتمل؟

القسم الثالث

اللغة والكتابـــــــة

من بين المحاولات المستميتة لتفسير الطريقة التي نكتسب بها اللغة، طغت رؤيتان مختلفتان للعملية: الرؤية الكلاسيكية التي تعتبر أن المحاكاة والتكرار والتعزيز هي الوسائل التي تمكن الطفل من اكتساب اللغة بشكل طبيعي داخل نطاق مجتمعه الصغير. هذه النظرة تقوضت عندما طالب تشومسكي بتفسيرٍ لقدرة الطفل على النطق بجمل، وعلى فهم معانٍ لجمل لم يسبق له أن سمعها، وهنا بدا للتو أن هناك تياراً جديداً يتكون.

لم يكتفِ تشومسكي بنسف تلك النظرية، لكنه أدخل عنصراً دراماً جديداً عندما قال بوجود استعداد فطريٍ للإنسان لاكتساب اللغة/ اللغات التي يتحدثها مجتمعه. ويحيد هذا الاستعداد عناصر المكان والزمان والعرق والدين..إلخ، ما يعني أن كل طفل يولد ولديه الاستعداد لتعلم الهيروغليفية وبذات القدر فهو "جاهز" لتعلم العربية، أو الإنجليزية، أو أيٍ من اللغات الحية طالما أن ذلك يتم بشكل طبيعي، أي أن تلك اللغة هي لغة الجماعة التي يعيش بينها. إذا اعتبرنا أن الطفل هو قماش للوحة على وشك أن ترسم، فإن تلك اللوحة في الرؤية الكلاسيكية تظل هناك معرضة لصنوف التلقين، والقواميس تحاول بيأس أن تقول نفسها وتفشل في ذلك. في المقابل، فإن تشومسكي كشف لنا أنه من الممكن أن تتحرك اللوحة خطوةً إلى الأمام (فهي مزودة بجهاز اللغة) وما أن نبدأ بوضع بعض الخطوط عليها حتى تشرع بتلاوين نفسها بنفسها.

هل نرى الكون من خلال لغتنا؟

في إطار جهود اللغويين لتوصيف العلاقة بين اللغة والفكر عكف اللغوي الألماني إدوار سابير (1884-1939) مع زميله بنيامين لي وورف على الفرضية التي أسمياها باسميهما، فرضية "سابير – وورف"، والتي عرفت أيضا ب"فرضية النسبية اللغوية". يقول سابير وورف: "إن اللغة هي التي تفرض على المتكلمين منهجها، وتحدد رؤيتهم للعالم؛ لأن كل لغة تتضمن تنظيماً مثالياً تكون فكرة متكلميها، وأن المتكلمين باللغة المختلفة يتصورون العالم تصوراً مختلفاً،

ويلتزمون بالتفكير بالأشياء انطلاقاً من قضايا لغتهم ؛ بمعنى أن ثمة ارتباط بين اللغة والفكر، بحيث يرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً لا سبيل إلى فصله فيرى المتكلم بلغته ما حوله من خلال لغته؛ وأن "كل لغة تحمل إرثا اجتماعيا وثقافيا ينعكس على أبنائها من جيلٍ إلى جيل".

لقد توصل العالمان إلى هذه الفرضية أثر مجموعة من الأبحاث على مجموعات مختلفة من بينها الجماعات الهندو أوروبية لاحظا خلالها وجود أنماط مختلفة من التفكير منعكسة بشكل جلي في التراكيب اللغوية. يحضرني هنا ما أورده بورخيس في حوار أجرى معه في أمريكا عام 1980 "أخبرتني جدتي أن العد عند هنود البامباس يكون هكذا: "واحد"، "اثنان"، "ثلاثة"، "أربعة"... "كثير"، وهكذا وقع "المطلق" في الإبهام! إن فكرة هؤلاء الناس عن المسافة هي فكرة محجمة للغاية. إنهم لا يفكرون في المسافة من حيث كونها أميال أو فراسخ. إن ذلك يدعم بقوة الادعاء بأننا إنما نرى الكون من خلال لغتنا. ما تقوله هذه الفرضية مقروءاً تحت ظل ما توصلنا إليه في الفصل السابق هو السجون التالية:

- العلاقة بين اللغة و"التفكير" علاقة عضوية لا يمكن فصمها.
- اللغة تنفعل في الجماعة وهي ليست عنصرا سالباً.
- اللغة مظهر من مظاهر المحاولة المستمرة للقول: محاولة قائمة على جوع ضروري.
- إننا نفقد ذواتنا الحقيقية حين نذوب في الجماعة عبر اللغة.

والآن: إننا نرى العالم عبر لغتنا.

إن دحض هذا النظرة أو التقليل من بؤسها لا يتم إلا إذا وضعنا العدسة على العلاقة الاحتوائية بين اللغة والجماعة ـ والتي تعززها فرضية "سابير وورف" الآن ـ وعلى فعل الجماعة في اللغة. إن الرضوخ إلى المعطى الأخير القائل بأننا نرى العالم عبر لغتنا يكتمل فقط في حالة أسقطنا من الاعتبار أن لغتنا ليست كائناً جامداً حيالنا. إن اللغة تتحرك بحسب التأثيرات التي تقع عليها بواسطتنا. سيكون علينا النظر إلى أن هناك حوار حيوي يتم بين الجماعة ولغتها بحيث لا يكون هناك فعل في اتجاه واحد، ثمة قطعة في الشطرنج الخفي معدة للحركة في كل وقت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. شروط هذه اللعبة تقع خارج الانتصار والهزيمة إذ أن "الملك" هنا

هو الإنسان وهو ملك مدمن على خصمه لكن حياة خصمه في حياته فبموته تموت اللغة. بقي أن نقول إن تلك القطعة الشجاعة في الشطرنج هي الكتابة.

اللغة الأب:

عندما رست السفينة التي يعمل عليها "جوزيف تيودور كونراد كورزينوسكي" على أرض انجلترا في عام 1878، مسلمةً للجزيرة الإنجليزية بحاراً بولندياً يتيماً لم يتعد الواحد والعشرين من العمر، لم يمثل الأمر حدثاً من أي نوع. إنما بحلول عام 1902، أي بعد إنهاء كونراد لكتاب "قلب الظلام Heart of Darkness"، كان هذا الطارئ الغريب قد منح "الأدب الإنجليزي" بالفعل ما يقارب العشرة أعمال وصفت هي وما تلاها من روايات على أنها بيان ساطع لمنجزات تيار الحداثة في الأدب، والأجدر بأن تكون ضمن أعظم ما كتب في القرن العشرين.

إن ما فعله كونراد في الحقيقة يتجاوز حظوة إثراء الآداب الإنسانية بأعمال إبداعية ملفتة من حيث الجدة والأصالة على أهمية ذلك. بالأحرى، فقد مثل إبحار هذا البولندي إلى عرش الأدب الإنجليزي ـ ماراً باللغة الفرنسية مروراً طفيفاً اقتضته حياة البحر ـ لحظةً خاصةً في تاريخ الأدب واللغة، إذ وضع كونراد مسألة الكتابة في اللغة الثانية في الحافة القصوى بالنسبة للمربع المكون من اللغة والتفكير، والكتابة الإبداعية والهوية طبعاً. وبالنسبة إلى هذه الورقة، فإن هذا المربع هو المستوى الأفقي للبحث، بينما تشكل العناصر المتولدة عن علاقاته المركبة مستوى رأسيا قد ينتهي إلى فرضيات جديدة أو إلى أسئلة أخرى، وهذا هو ما سنراه في صفحات هذه الورقة.

لجأت إلى إيراد هذا النموذج لأطرح منذ البداية الأحبولة التي وقعت فيها أثناء تطور البحث والانتقال من مستوى نظري إلى آخر. إن تأمل تجارب خارقة مثل تجربة كونراد في الكتابة بلغة أخرى مدعاة لسلسلة من التساؤلات. ثمة عوامل فرديـ ـة على الدوام تحول ـ لحسن الحظ ـ دون وضع تصورات قيمية فاصلة. ففي تجربة كونراد إشارات تتعلق بإعادة التفكير فيما يسمى بداية التجربة. لقد بدأ كونراد الكتابة بعد وصوله انجلترا وكان في العشرينيات من العمر، ولا توجد مصادر تفيد بأنه كتب بلغته الأم "البولندية". إنني أتساءل إن كانت نصوصه

الأولى في الإنجليزية هي فعلاً تلك النصوص التي نطلق عليها باطمئنان وصف النصوص "الأولى" للكاتب دون استحضار روح آرتور رامبو من تبرمها بالسيرورة. انتهى رامبو من كل شيء بسرعة، لقد كان متحرقاً للنهاية وساخطاً من كل ما يوحي بالنسق، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة ليقول أنا مستيقظ ولا يهمني شيئاً. إنما كونراد هو بحار، ولم يتوقف عن كونه بحاراً ـ بالفعل ـ حتى وهو يكتب. إنه يقف على كل تفصيلة ليضمن أن صراعه مع الطبيعة سيكون على الأقل عادلاً، وإلا فإن ذلك يعني ضياعه. يقف كونراد على الطرف الأقصى من رامبو مشاركاً إياه في الغرابة، ليس في الانتهاء بسرعة إنما في الشروع المتباطئ مثل إقلاع سفينة. إن نصوص كونراد الأولى هي السنوات العشرين التي قضاها في السفن وهي الحكايات الصاخبة لحياة بحار قرر الشروع بتدوينها وهو يجوز الأربعين من العمر. لقد بدأ كونراد من عدة أصفار في وقت واحد: صفر اللغة، وصفر البحر، وصفر العائلة، لقد كان "غريباً" بامتياز.

إن الكتابة في اللغة الثانية تعني سلسلة من التضحيات. متفقين على أن اللغة هي الحامل الرئيس للسمات الثقافية لأية مجموعة وإنها تعمل أيضاً كمحدد للهوية يكون التخلي عن الكتابة في اللغة الأم مغامرة تحوطها الخسارة. إن الكاتب يغادر بيته حين يكتب في لغة أخرى، ونظراً إلى أن المعنى الخاص بكل مفردة أو بكل تركيب لغوي يعيش حياته الحقيقية في سياقه الخاص، فإن علاقة الكاتب بلغته الأم ليست علاقة قاموسية. المتكلم في لغته الأصلية يدرك المعنى ليس لأنه فقط يتعرف إلى التركيب اللغوي المعين، ولكن لأن جزء من المعنى موجود لديه.

لننظر إلى هذه العبارة الدارجة: "كلٌ يغني على ليلاه". إننا نستخدم هذه العبارة لوصف حال من التشتت أو غياب الرؤية الموحدة أو تفرق السبل أو انعدام المشاركة الحقيقية أو الانشغال عنا من طرف كنا نظنه منشغلاً بنا. هذا المعاني حاضرة في كل زمان ومكان وجد فيه البشر، لكن بطبيعة الحال تختلف طريقة التعبير عنها. إن حضور "ليلى" في هذه العبارة يضفي ـ رأسا ـ ظلاً بعيداً من الخسارة والفقد. لقد تحولت صورة "ليلى" في الخيال الجمعي إلى صورة أيقونية، وتمت استعادتها باستمرار ووضعت في سياقات مغايرة أظهر ما بينها دلالتها في القاموس الصوفي، لكنها ـ هناك أيضاً ـ تعزز معنى التشوق والتطلع إلى الصلة والرجاء والشعور بالنقصان. كما أن حضور الحرف "على" يعزز بطريقة خفية من هذه الظلال، لأن

فعل الغناء الذي يوحي خارجه بالبهجة لا يتم "على" شيء. فنحن نغني لبعضنا، أو عن بعضنا، أو لأجل كذا، أو في كذا، ولكننا حين نحزن أو نندم، فإننا نحزن ونندم "على" شيء ولا يرد هذا التركيب "الغناء على" إلا في سياق التباكي على الطلل وديار حبيب، باعتبار ذلك واحدة من تقاليد الشعر الجاهلي. بقي شيء أخير أتساءل فيه إن كانت ثمة دلالة وراء أن تأتي لفظة "كل" عارية من أداة التعريف، نكرة عامة. هل كان المعنى ليختلف لو لكانت لفظة "كل" معرفة بالإضافة أو بالإلف واللام؟ إن اللفظة كما وردت تشبع المعنى العام وتمثله. كان التعريف سيقتل المعنى أو على الأقل سيضعفه. إن هذه العبارة تخسر بجزء من معناها عندما تترجم إلى لغة أخرى. في اللغة الأخرى لا توجد "ليلانا". من المؤكد أن ثمة ليلى في كل لغة حية وميتة إنما هي ليلى أخرى. وحتى عندما ندرج هذه العبارة في سياق تقريري، لن يكون بالإمكان نزع ما سرى فيها من ظلال تشكلت بفعل علاقة المفردات ببعضها البعض وبتاريخها غير المعلن.

هنا يبرز تحدي الترجمة والتي لكي لا تخون النص الأصلي عليها ألا تلتزم به كلياً، ولكن تلك هي قصة أخرى. ما أردت أن أسوقه بهذا المثال هو أن التراكيب والمفردات في كل لغة لديها تاريخ، وهذا التاريخ غير موجود في القاموس إذ ليس ثمة قاموس سيتسع له، لكنه موجود في الذاكرة الجماعية وفي الحساسية المتولدة عن عملية الخلق والاستقبال بين اللغة وأهلها. إن الكتابة في اللغة الثانية هي تضحية بهذه الحساسية وتضحية باحتمالات التأثير والتأثر التي تميز العلاقة بين اللغة والجماعة لان الكاتب منغمس في نشاط تمثل اللغة أول أبوابه وحين يتركها، فإنه يحجم احتمالات فعله في اللغة الأم دون أن يكون بالمقابل قد تحال كلياً من فعل لغته الأم فيه.

المغامرة الثانية أكثر صعوبة من الأولى: الدخول في التاريخ غير المعين للغة المكتسبة. إن المفارقة الجميلة في هذه الورطة هي إن الأدب يتسبب في المشكلة من جهة ويحلها من جهة. فالأدب حياة ثانية داخل الحياة وهو من فرط حريته قادر على استيعابها وتلخيصها وتشخيصها دون أن يلزم نفسه بذلك. عندما أفكر أين يقع القلب من جسد اللغة، لا شيء يدفعني إلى رفع نظري عن الأدب، فهو خزانة بالمعنى الحرفي للكلمة. هنا ـ وليس في دروس اللغة ـ وجد كونراد الأسرار مبذولة واللغة تتكشف وتتجلى في أجمل حالاتها، وجد الأطلاس المتجدد للعالم،

وجد التاريخ المفبرك ينبض، لكن أين يوجد تاريخ دون أن يكون مفبركاً؟ وجد الصراع مع الحياة والإنسان في ضعفه وقوته وجد ما يمكن أن نسميه المعجم الكامل للغة والحياة والزمن.

إن الكتابة هي الرد الوحيد على الفراغات الناتجة عن تهجير الكاتب لنفسه من لغة إلى لغة. وبقدر كونها الحارس على ما فقده في لغته الأم بقدر ما هي البوابة لما سيكتسبه من كنوز جديدة. إن تعرض الكاتب إلى اللغة الثانية يشبه عمليات التجريف. تأتي إليه اللغة بكل ثقلها وينخرط الطفل من جديد في لعبة التعلم. لكن هذا الطفل لم يعد بريئاً، إنه مثقل بذاكرة مكتملة وبعالمه الذي استكشفه داخل لغته الأم كما أن لديه هوية. هنا ستسقط بعض الأوراق: وما هي الهوية ؟ هل هوية الكاتب تتطابق مع هوية الجماعة؟ من هو الكاتب؟ لمن ينتمي؟

اعتبار القارئ:

لنتمثل الآن فرضية اللغة الأب والتي حين تتمثل تجربة الكتابة الإبداعية في لغة ثانية تفترض جملة الخسائر التي استعرضناها منذ قليل. بالإضافة إلي احتراز مغاف من كون اللغة الثانية بالنسبة للكاتب قد لا تكون اختياراً كامل الحرية؛ اختيار محكوم بمجموعة عوامل تقع خارج حدود الكتابة لكنها تؤثر عليها ومن بين ذلك القارئ الافتراضي الذي يتوجه إليه الكاتب. إن تفضيل الكتابة في اللغة الثانية على اللغة الأم في سياقات معقدة يتداخل فيها السياسي والاجتماعي بشكل عنيف تجعل من احتمالية تحول لغة من اللغات إلى رمز سلطوي احتمالية غير مستبعدة.

بين هجرة كونراد إلى انجلترا وتهجيره إلى اللغة الإنجليزية يقف تراث عظيم يمثله الأدب الإنجليزي كما تقف دولة مهيبة لا تزال تيجانها موزعة في مستعمرات ما وراء البحار. في هذا المشهد المتأكد كان على كونراد أن يجد مكاناً لصوته المفرد، صوت أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه غريب الوجه واليد واللسان. لكن لأي مدى كان لذاك المشهد وطأته على كونراد؟ لماذا يضع بحار يجوب العالم من أقصاه إلى أقصاه قارئ اللغة الإنجليزية نصب عينيه وهو يكتب؟ هل هو بحث عن الاعتراف واستجداء لشرعية وجود الغريب في"شعب بوانه" على اليابسة الإنجليزية؟

إن حياة كونراد ليست إلا مجموعة من الرحلات التي تتأرجح بين الحلم والكابوس. عندما كان في الثانية من العمر كان ينطلق مع أهله إلى رحلته الأولى ورحلة والديه الأخيرة. لقد نُفي والده إلى شمال روسيا، وفي ذلك المنفى فقد كونراد والديه وعهد بأمره إلى عمه. في فصل الدراسة لم يكن لكونراد حديث سوى حلمه بالإبحار إلى بلاد بعيدة وعندما ـ لاحقاً ـ شارف على الوصول إلى شواطئ الكنغو، أفصح لرفاقه إنه وضع إصبعه ـ ذات يوم ـ على الخريطة وقال أنه سيذهب إلى هذا المكان. لقد ذهب كونراد إلى أبعد من الكنغو بكثير لكن ما يهمنا هو انفتاح كونراد على أحزانه وأحلامه بالشجاعة نفسها، وسواء كان اختياره للإنجليزية مشوبا بالبحث عن الاعتراف أو لتعلقه بروحٍ ما في اللغة الإنجليزية، فإن كونراد استطاع أن يحاور سلطة اللغة ويزعزعها بأفضل مما لو كان بحاراً بولندياً يكتب للقارئ البولندي. هنا تحضر اللغة الثانية أيضاً كمصدر ومحفز للكتابة أي كفاعل في الكاتب وجسر أعيد بنائه على نسق جديد جسر رابط لا بين الكاتب و"شعبه" أو جماعته، إنما بين الكاتب والإنسان. وتلك هي هوية الكاتب الأصلية وانتماؤه الأصيل.

القسم الرابع

أبواب ستيلا قايتانو

"كانت قصصي ستكون أقصر بكثير لو كتبتها في اللاتوكا، لغتي الأصلية"
ستيلا قايتانو

قاصة شابة لها مجموعة قصصية متميزة بعنوان "أزهار ذابلة". وكان ذلك هو ردها على سؤالي عن "توقعاتها" عما كانت ستكون عليه نصوصها في لغتها الأم. ستيلا التي تتكلم على الأقل ثلاث لهجات بحكم قبيلتها "اللاتوكا"، ثم بحكم إقامتها في "الحاج يوسف"، شمال الخرطوم، حيث تحايلاً على تعدد اللهجات المحلية يميل السكان، ومعظمهم من الجزء الجنوبي من البلاد، إلى استخدام لهجة وسيطة هي "عربي جوبا". تشكت ستيلا من كون تلك اللهجة الوسيطة نفسها

ليست موحدة حيث توجد واحدة أشد تعقيداً من الأخرى. كان هذا التفصيل مهماً وكان المشهد الوصفي ـ لرحلة اللغات ـ مهماً كذلك. فستيلا تقول أنها تتحدث بلغتها الأم مع أهلها في البيت، وبمجرد خروجها تبدأ رحلة من القفزات بين لهجة وأخرى إلى أن تصل إلى الخرطوم حيث مكان دراستها أو مكان العمل.

إن تميز قصص ستيلا عائد ليس إلى خصوصية الأجواء التي تتجول فيها بحرية، إنما للمحبة العادية التي تكتب بها ستيلا شخوصها. ستظل العلاقة بين الطفلة والجدة في "بحيرة بحجم ثمرة الباباي" هي واحدة من التشريحات العميقة للعاطفة بين كائنين بشريين في القصة السودانية.

عندما أقايس تفرد هذه القصة بقصة أخرى في المجموعة، "هنا كل شيء يغلي"، يتضح لي أن الميزان الدقيق الذي أمسكت به ستيلا ببراعة في "بحيرة بحجم ثمرة الباباي" قد مال قليلاً لصالح شيء يمكن أن اعتبره خارجياً بالنسبة إلى كتابة القصة، وهو "توثيق" البؤس الإنساني لشريحة كبيرة من البشر يعيشون في ظروف غير إنسانية جراء الحرب والظلم الاجتماعي.

على أن سؤال اللغة عند ستيلا هو السؤال المقلق وكانت هي أيضا تفكر بصوت مرتفع: لماذا اكتب بالعربية؟ يا له من سؤال؟ وبماذا يجب علي أن اكتب؟

إن تساؤلات ستيلا المتتالية كان فيها طرف كبير من الواقع ؛ وحيث انه لا توجد فرضية مسبقة بوجوب أن تكتب ستيلا في لغتها الأم، فإن رفع السؤال إلى السطح أحدث تأثيره على كل منا.

بالنسبة لي، فقد كنت مهيأة إذ أن الموضوع برمته يدور في ذهني منذ فترة كما أنني أعدت قراءة مجموعة ستيلا مراراً للعثور على تمظهرات سؤال اللغة بالنسبة لكاتبة لا تعتبر اللغة العربية لغتها الأصلية. لكن كانت ستيلا أيضاً مهيأة.

لماذا تشعرين أن قصصك ستكون أقصر لو أنها كتبت في "اللاتوكا"؟ إن خلاصة الإجابة على هذا السؤال كانت صادمة قليلاً بالنسبة إلى فرضيات الورقة: تقول ستيلا إنها تلجأ أحياناً إلى الشرح؛ ويحدث أن تكون بصدد فكرة أو مشهد أو اسم لا يحتاج لأكثر من جملة واحدة ليكتب في اللاتوكا. لكن لكي يصل المعنى في العربية، فإن ذلك يكلفها عدد أضافي من الجمل. "اولير" مثلاً. هذا الاسم يعني في اللاتوكا: المولود في العراء، ولم تكن هناك حاجة لترجمته، فالمعنى

معروف في اللغة الأم. عندما جاء ذكر الترجمة عرفنا أن ستيلا تقوم بعملية معقدة داخل عملية الكتابة المعقدة: إنها تترجم نفسها!

التفكير في اللاتوكا والكتابة في العربية:

يبدو أن الفجوات هي الكلمة المفتاحية في هذه الورقة. تعيدنا ستيلا مرة أخرى إلى الجسر بين ما يخترمنا وبين ما نريد قوله. إذا استعدنا أحبولة الفقد التي مبتدأها: اللغة، ثم التعقيد الذي يكتنف عمليتي التفكير والكتابة الإبداعية، فسيكون بوسعنا تصور أن تجربة ستيلا في كتابة القصة القصيرة مع تعرض كامل للغتها الأم وتعرض فاعل للغتها الثانية وفي وجود مركب لعملية الترجمة هي تجربة مشوقة فعلاً وتستحق التأمل. تعبر ستيلا الفجوات بشجاعة يسوعية وتتحقق في سلسلة الخسائر المستمرة بين المخزون اللغوي الهائل المضحى به في اللاتوكا؛ صعوداً إلى اختراقات الكشف عن روح اللغة الثانية في تجلياتها المختلفة. وبينما لا يشغلها السؤال عن اللغة التي تكتب فيها، فإن الكاتبة في ستيلا تقرر فيما يبدو تجاوز التسميات منطلقة في حضور بسيط لكنه شاخص نحو الآخر بطاقة ناجزة مطمئنة إلى الإنسان في كل اللغات وحاضرة فيه. إنها تفعل ذلك في القصة كما تفعل في صباحات كثيرة من الأسبوع. وإذا نظرنا إلى شخوص ستيلا، فسنعثر على الجيران وعلى العائلة وعلى الإنسانية المقيمة في الحدود بين لهجة ولهجة وبين خسارة حدثت وأخرى تحدث. إذا كان للاوعي بنية اللغة كما يدعي لاكان، فلم لا نقابل العناصر ونبدل مواقعها ليكون لدينا معطى جديد (فكرة بنيوية للأسف): تجربة ستيلا لها بنية عالمها. كنت أتساءل ما إذا كانت كتابة ستيلا ستكون أجمل في لغتها الأم وذلك تساؤل يطغى عليه التبسيط المخل: حين تكتب ستيلا بمعزل عن الاستقطاب المبرم للغتين، وبعيداً عن شبهة الترجمة، وبعيداً عن ما تعتبره كتبها وكتابها المفضلين، وبعيداً عن الانغمار في كتابات أصدقائها، وبعيداً عن الباب المطل على عالمين، وبعيداً عن رحلة اللغات اليومية، هل كانت ستكون هي عينها ستيلا التي نستنطق تجربتها الآن؟ إن كتابة ستيلا هي كتابة التشظي، إنها كتابة حقيقية لأنها تحقق الإنسان دون تهيب ودون انجراف وراء قوالب الهوية. مع ذلك، لا تنفي تجربة ستيلا إمكانية الكتابة باللاتوكا. تجربتها احتمال من بين احتمالات كثيرة

وهي اختيار متحرر لكنه لا يدين أي شيء ولا يبجل أي شيء. إن ستيلا، ببساطة شديدة، تكتب شظاياها وتعكف عليها.

ختـــــــام

يتوجب علي العودة إلى فرضية اللغة الأب وملامستها من جديد تحت أنوار وضلالات ما تعرضت له من أفكار في الصفحات الماضية. إن الفراغ المحصن الذي يقاسيه الإنسان بوجوده القلق هو بالضبط المحرك الأول لكل رغباته في التحقق. إن الأسئلة تصيبه بالحمى التي تحميه من الموت والتحلل في الخضوع، وما حضاراته وحروبه وأمراضه وتوهانه، إلا أجساده الباحثة عن أسرارها. تتكشف اللغة في الكتابة التي يتكشف فيها الفرد وهو يصارح العالم بتوهانه. إن المتعة التي نجدها في الخيالات وفي الشخوص المختلقين وفي الوقائع المضللة، هي إقرار بفشل لا مناص منه في الاكتمال. إننا نكتمل في المشهد الكلي الغائب ونحاول دائماً العثور على مدلولٍ ما يآخي وجودنا الناقص. بتأمل الكتابة في اللغة الثانية، أعثر على محاولة شجاعة لتأمل الذات ومحاورتها من النقطة الابتدائية حيث تسقط ورقة وتنبت ورقة وحيث لا تكفي أية لغة لتكون هوية كافية لأي كاتب حقيقي. إن هوية الكاتب هي فرديته التي يجمعها إلى الآخر ما هو أعمق من لغة مشتركة، ما هو أشد أصالة من المعنى؛ الحاجة إلى مرآة يرى فيها وجوده وبمعنى آخر: الاختلاف.

الهــــــــوامش:

(1) الشهر زادي الفيروزبادي، القاموس المحيط – المجلد الرابع ص 386 فصل اللام باب الواو والياء، دار الفكر بيروت 1978

(2) الدكتور فضل، عاطف، مقدمة في اللسانيات، دار الرازي، 2005، ص 15

(3) المصدر السابق، ص 12

(4) المصدر السابق ص 16-21

(5) بارت، رولان. مبادىء في علم الأدلة – تعريب البكري، محمد. دار الحوار ص 65

(6) ستروك، جون. البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا ترجمة د. عصفور، محمد. سلسلة عالم المعرفة 206 ص 14

(7) د. خرما، نايف. د حجاج، على. اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها. سلسلة عالم المعرفة عدد 126 ص 35-36

(8) الدكتور فضل، عاطف – مقدمة في اللسانيات عن دار الرازي 2005

(9) بارت، رولان. المصدر نفسه ص 28-29

(10) ا. ستروك، المصدر نفسه 206 ص 149

* قُدمت هذه الورقة في المؤتمر العام لاتحاد الكتاب السودانيين الذي انعقد بالخرطوم من 20 إلى 22 سبتمبر 2006، تحت عنوان "نحو مشروع ديمقراطي للتثاقف السلمي".

** **نجلاء عثمان التوم،** شاعرة ومترجمة. ولدت بالخرطوم في عام 1975. تخرجت في كلية الآداب، جامعة أمدرمان الأهلية، قسم اللغة الإنجليزية. وحصلت على دبلومٍ عالٍ في الترجمة العامة من جامعة جوبا في عام 2003. صدر لها كتاب شعري: منزلة الرمق، مذهب في كمال التحول، دار كاف نون، القاهرة، 2007.